الأماكن المفتوحة و جماليتها في رواية " حائط المبكى" لعز الدّين جلاوجي

Open spaces and their beauty in the novel "The Wailing Wall" by Izz al-Din Jalawyi

كمال محمودي[1] ، شهرزاد محمودي[2]

[1] جامعة الجزائر2(الجزائر) mah.kamel18@gmail.com

[2] جامعة تيزي وزو (الجزائر) .chahramahmoudi2017@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/05/16	تاريخ القبول:2021/09/10	تاريخ النشر: 2021/09/30

الملخص:

تتشكل الرواية من مجموعة عناصر سردية تتفاعل فيما بينها لتشكلها ، ومن بين هذه العناصر نذكر عنصر المكان الذي عدّه الكثيرون بأنّه العمود الأساسي في أي رواية، و الملاحظ في رواية عز الدين جلاوجي" حائط المبكى" تعدد هذه الأماكن سنحاول في هذا البحث عرض الأماكن المفتوحة التي استعملها الكاتب لتقديم مشاهد وقوع الأحداث وتبيان دلالاتها.

الكلمات المفاتيح:

الأماكن المفتوحة، الجمالية، الرواية، حائط المبكى، عز الدين جلاوجي.

Abstract :

The novel consists of a group of narrative elements that interact with each other to form it. Among these elements we mention the place element, which many considered to be the main pillar in any novel, and it is noticeable in Ezz El-Din Jelawy's novel "The Wailing Wall" that there is a multiplicity of these places. The author used it to present scenes of the events taking place and to clarify their implications.

Key words:

Open spaces, aesthetic, the novel, the Wailing Wall, Izz al-Din Jalawy.

1- مقدّمــة:

لقد حاز المكان دورا مهما في أي عمل روائي، فهو بمثابة العمود الفقري لباقي العناصر السردية الأخرى كما يعد الساحة التي من خلالها تتحرك فيها الشخصيات وهذا ما لمسناه في أحداث رواية " حائط المبكى " و التي كان بطلها طالب معهد الفنون الجميلة و الذي أغرم بفتاة جميلة في البداية و ما إن تتسارع الأحداث و يعيش حالة نفسية متغيرة تغير الأماكن التي شهدتها الرواية فما هي الأماكن المفتوحة التي استعملها الكاتب لتقديم مشاهد وقوع الأحداث؟ وما هي دلالاتها؟

2- تعريف المكان المفتوح:

هو مكان لا يحده حيز معين ، يلتقي فيه أعداد مختلفة من البشر،و هو يزخر بالحركة و الحياة، يتواصل الناس فيما بينهم فيه، يحققون فيه مبدأ الميل و العيش في جماعة بعيدا عن العزلة يعرفها عبد الحميد بورايو:" و نقصد هنا بانفتاح الحيز المكاني: احتضانه لنوعيات مختلفة من البشر وأشكال متنوعة من الأحداث الروائية، و تتصل هذه الأماكن المفتوحة بفضاءات محدودة و غير محدودة كالبحر و الغابة و الصحراء و الشوارع و الجسور وهي بدورها توحي بالحرية الانطلاق و الانسجام مع الذات."[1]

وتعتبر هذه الأماكن المفتوحة متاحة لجميع الأفراد على اختلاف طبقاتهم و مستوياتهم ، لا يحكمها شخص معين و لا يحق له التصرف فيها بمشيئته، و للأماكن المفتوحة أهمية بالغة حيث أنها تساعد على " الإمساك بما هو جوهري فيها، أي مجموع القيم و الدلالات المتصلة بها."[2] أي أن هذه الأماكن المفتوحة تعتبر مسرحا للشخصيات تتحرك فيها و تنتقل بكل حرية بداخلها.

فمن بين هاته الأماكن المفتوحة ما هو إيجابي كالبحر و الحديقة و الحي و منها ما تكون مصدر فشل وخيبة يضيع الإنسان من خلالها كالمدينة حيث تتحول هذه الأخيرة أحيانا إلى مصدر للفجائع، و تصبح سببا في أحزانهم و علة لغياب الحميمية و الحب.

أ- **المدينة:**

تعتبر المدينة ذلك الفضاء المفتوح الذي تتحرك فيه الشخصيات وتقع فيه الأحداث، وهي " مسكن الإنسان الطبيعي."[3]و قد أوجدت المدينة بأن الإنسان اجتماعي بطبعه و لايستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين فهو بحاجة إلى تجمع بشري يحس بداخله للانتماء و الأمان، و يمارس بداخلها وظائفه، حيث يأثر و يتأثر بمن حوله، ولكل مدينة خصائصها ومميزاتها تميزها عن المدن الأخرى سواء في موقعها الجغرافي، العادات و التقاليد، ذلك لأن

ثمة مدنا" منفتحة على نهر أو على الأفق.....و ثمة مدنا قابعة في زوايا الأودية، منغلقة كالمقرور في ظل بواباتها، أو منكمشة في حركة ذعر أو منتشرة في ظل السهل البعيد."[4]

حيث تمثل المدينة بالنسبة للسارد رمزا سلبيا فهو ينظر إليها نظرة الغريب في وطنه نظرا للكابوس الذي يعيشه، فهو لا يريد ترك مدينته بالرغم من الأحاسيس التي يحسها نظير سكوته عن جريمة يظن انه شريك فيها " أنا لا أهجر المدينة أيضا. "[5] فالضغط الذي يعاني منه السارد جعله يفكر في السفر على المغرب بغية أخذ قسط من الراحة و التخلص مما يعانيه ضغط و وسوسة رهيبين، فهو بحاجة للتحليق بعيدا، وما إن تطأ قدمه مدينة الدار البيضاء حتى صدم من منظر هاته المدينة التي لم يطق حتى دخولها، إن كرهه لهاته المدينة نابع من الوسط المشحون بالبؤس و الحرمان و الفقر الذي تشاهده أينما وليت وجهك، بالإضافة إلى كثرة المدمنين و المشردين و ذلك راجع لتصدع العلاقات الاجتماعية، هذا المجتمع الذي فقد كل القيم و المعايير الاجتماعية، لم يستطع السارد أن ينغمس فيه و يعيش في ثناياه.

يقول السارد:" هذه المدينة لا تثير شهيتي، بأحيائها الإسمنتية الميتة باردة، بمظاهر البؤس التي تواجهك في بعض أحيائها، بكثرة المدمنين و المشردين، بذبول عبق الانتماء."[6] إن أول ما يواجهك ويلفت انتباهك عند زيارة هذه المدينة، هذا المكان الذي تتأثر به العين قبل أن تتأثر به النفس، إن أحيائها الإسمنتية الميتة موت سكانها و مظاهر البؤس فيها، و كثرة المدمنين و المشردين فيها، فالمدينة موحشة لا أريحية فيها ومن شدة هذا المنظر جعله يحجز في الطائرة المتجهة غلى مراكش و منها غلى الصويرة هروبا من هاته المدينة البائسة.

يقول السارد:" أشرقت علينا الصويرة....ترتدي ملاءة خضراء هاربة من جنات عدن، عجلنا إلى المدينة القديمة نختار أحد فنادقها الساحرة الموغلة في التراث، وهي تمد أقدامها إلى أمواج المحيط الأطلسي."[7]

إن الموقع الطبيعي لهذه المدينة المطلة على المحيط الأطلسي يبعث على الراحة النفسية و الاطمئنان خاصة وأنه برفقة السمراء المراكشية التي أنساه جمالها و جمال مدينة مراكش تلك الكوابيس التي كانت تراوده في مدينته ليل نهار، ما عاد يتذكر تلك الجريمة الشنيعة و ما عاد يتذكر ذلك السفاح، حقا إنها جنة عدن فوق الأرض .

و يمضي السارد في وصفه لهاته الجنة :" مساء رحنا نوغل في أزقة المدينة القديمة، التي تظل تدهشك كلما أمعنت في مراودتها، مدينة تفيض إبداعا و فنا و جمالا خلاقا .حتى لتكاد تجزم أن فن الكون كله هما منبعه."[8]فالكاتب يتغنى بهذه المدينة الجميلة جمال سمرائها و التي فتنت السارد و بعثت فيه الحياة من جديد بعد أن كاد يفقدها في مدينته، إنها رمز الإبداع و الفن و الجمال، حقيقة إنها بمثابة الدواء الذي كان بحاجة إليه السارد.

ب– البحـر:

يعتبر البحر من بين الأمكنة المفتوحة على الطبيعة، المعروف برحابته و امتداده و اتساعه، يحمل العطاء والرزق و الهبات الكثيرة للإنسان، إضافة إلى أنه ملهم الفن و محفز للإبداع، فلطالما تغنى به الأدباء و الشعراء ويبدو من خلال الرواية أن شخصيات الرواية تبوح بعشقها للبحر و ميلها إليه، يقول السارد:" كانت لي رغبة جامعة في أن نزور البحر هذا الصباح يتملكني حد النخاع و أنا أقف أمامه هائجا، مستعرضا لقوته و مهارته القتالية."(9)

إن أمواج البحر تمثل القوة التي تسيطر على حركة الحياة، و رغم هذه القوة التي تبعث الخوف في النفوس إلا مكان للفرح يلجأ إليه الإنسان لغرض معين يختلف من شخص لآخر يقول غاستون باشلار:"المكان الفسيح هو صديق الوجود."(10) فالبحر عالم فسيح يلهمك ويأخذك إلى البعيد وهو يمثل في الرواية أيضا ملتقى العشاق فجمال البحر يزيد من حالات الحب وهذا ما نلحظه في الرواية من خلال الجمع بين البحر و العشق حيث يقول:" ضمتنا كافيتيريا الأحلام، مباشرة على شاطئ البحر، تقابلنا وجها لوجه، سرحت عبر الزجاج أتأمل الأمواج العاتية، حيث عدت ببصري إليها، انسحبت من دهشتها و قد كانت تتأملني، رفعت برأسي أقترب منها، و كذلك فعلت و قد امتلأ وجهها فرحا."(11)

إن البحر فضاء عند التأمل فيه سوف تأخذك زرقته وأمواجه العالية إلى ما لانهاية فهو رمز الاستمرارية استمرارية علاقة السارد بسمرائه، هذا البحر الذي جعل من السارد نورس بحري " هناك كنت كنورس بحري تنسم الجنون ملء رئتيه."(12)فالسارد قد أصبح حرا طليقا كالنورس يحلق أينما يشاء، لقد فك البحر قيده من تلك الكوابيس المرعبة التي كانت تراوده ليل نهار، كان سببا في إطلاق عنانه و الاستمتاع بحياته .كما تبين لنا من خلال الرواية أن البحر هو مكان للسهر و أخذ من قسط من الراحة بعد يوم شاق

يقول السارد:" بعد العشاء سهرت مع فاتنتي المراكشية على شاطئ البحر، كنت في حاجة إلى أن أنصت لنغمات الكمان التي رقصت لها الأمواج كثيرا، وطرب لها المحيط حتى ثمل."(13)

إضافة على أن البحر كونه مصدر رزق للكثيرين، يضاف إليه أنه أصبح ملاذ يلوذ إليه الإنسان هروبا من أزمة أثرت نفسيته كما فعل السارد، فهو بحاجة إلى نغمات الكمان التي تعزفها سمرائه على شاطئ البحر، هده النغمات التي تجعل الأمواج ترقص، و يطرب لها المحيط.

ويمضي السارد و سمرائه بالتغني بالبحر حتى أنه حين أقبل إلى غرفة الفندق في مدينة عين الترك" و أسرعت إلى الشرفة الواسعة المطلة على البحر، الذي تحول فوق رماله الذهبية الدافئة إلى أطفال. "(14)

فالبحر هو رمز الراحة النفسية و التخيل حيث يخذك إلى عالم آخر يقول السارد:" لفت انتباهي زبد يتراكم من بعيد.....و على الرمل الذي ينتج فاه ليبتلع البحر دفعة واحدة."[15] فالجلوس أمام البحر و التركيز فيه يجعلك تتخيل صورا و لوحات فنية لدرجة أنه يتصور حبات الرمل بفاه يبتلع البحر دفعة واحدة.

ج – الشارع:

يعتبر الشارع من بين الأماكن الانتقالية المفتوحة التي تجمع جميع شرائح المجتمع على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم الاجتماعية و مستواهم الثقافي فهو " الذي يتحرك فيه الناس كل يوم و كل ساعة .....أحد الفضاءات التي تشهد حركة الشخصيات القصصية إذ يصوره القاص من خلال بيان أثره النفسي في الشخصية و الحالة الشعورية التي تدفعها إلى الشارع."[16]

ذلك أن السير في الشوارع يغر من نفسية المرء و تمنحه نوعا من الراحة المفقودة داخل البيت و في الأماكن المزدحمة و هذا ما نلمسه في رواية حائط المبكى يقول السارد: " قضيت يومي متنقلا في الشوارع""[17] فالحالة النفسية التي يعيشها السارد جعله ينتقل من البيت على الشوارع لعله يسمع أي جديد عن الجريمة التي ذاع صيتها في كل أرجاء المدينة فهو لا يستطيع أن يجلس في البيت بعيدا عن أخبار الجريمة التي يعتبر نفسه شريكا فيها ومتسترا عنها.

يقول أيضا:" حين مر اليوم الرابع تملك والدتي هاجس الخوف الشديد، كانت كئيبة قلقة لا تكاد تستقر في مكان واحد....و تسرع لتمد رأسها إلى الشارع"[18] فالوالدة تعيش حالة نفسية كئيبة مثل ولدها جراء غياب الأب لليوم الرابع فهي تطل على الشارع بغية أن تجد ضالتها أو أن تبحث عن أي أثر للأب، فهي لا تستطيع أن تجلس مرتاحة البال و زوجها غائب لليوم الرابع فالشارع بالنسبة لها مصدر راحة لعله ينبئها بأي خبر سار عن زوجها فتراها تطل على الشارع كلما سمعت وقع أقدام أو صوت سيارة ولكن في الشارع لا أثر للأب فيزيد قلقها وتزيد كآبتها و بالتالي يتحول الشارع من مصدر راحة إلى مصدر زيادة التوتر.

ويفضل الشارع عن الأماكن الأخرى" يتميز الشارع بسمة الحرية"[19] هذه الخاصية التي تفقدها الأماكن الأخرى، فتحس بأنك مقيد في رحابها. يقول السارد:" ظل يتبعها في الشارع الطويل المؤثث بأشجار النخيل كانت هي أيضا نخلة تمشي في خيلاء"[20]فالضابط هنا يمشي بكل حرية يتتبع الفتاة الجميلة جمال هذا الشارع المزين بأشجار النخيل بالإضافة إلى أنها أيضا تمشي و ينتابها نوع من الغرور و الكبرياء.

كما ذكرت في رواية حائط المبكى لفظنا الأحياء و الأزقة التي كان لها حضور في الرواية بداية بالحي الذي نشأ فيه و تربى فيه الوالد، هذا الحي الذي تجمعه به ذكريات الطفولة الجميلة رفقة أصدقائه خاصة مع صديقه عمار الجان و مغامراتهما في ارتياد الملاهي الليلية و مطاردة الحسناوات.

بالإضافة إلى وصف السارد حي السمراء الذي ترعرعت فيه و التي تحن غليه يقول:" كان الحي عتيقا بائسا تكاد جدرانه تتداعى.....وقفنا نتأمل الجدران و الباب الخشبي العملاق الذي ظل يقف معاندا صروف الدهر."[21] لقد وقف السارد وقفة أمام هذا الحي و أمام بيوته، هذه البيوت التي هي رمز للصمود أمام هزات الحياة، و رغم بؤس هذا الحي إلا أنه يحوي أناس طيبون كريمون، رغم فقرهم فهم يحسون بروح الانتماء لهذا الحي و خير دليل على ذلك الجدة التي كانت تقوم بتحضير الكسرة بنفسها رغم كبر سنها و تقوم بتوزيعها لكل أفراد الحي لا تستثني منهم أحد فقيرا كان أو غنيا ، فالجدة مغروسة فيها قيمة التعاون و التكافل بين أفراد الحي الواحد وتريد أن تغرسها في أبناء الجيل الجديد فهي تميل إلى عمل الخير و لو بأقل الإمكانيات .

و يمضي السارد في وصف الحي الفقير الذي نشأ فيه والد السمراء يقول:" خرج أبوها من رحم البؤس، فتح عينيه في الأحياء الفقيرة حيث آلام الناس أشد، حيث معاناتهم أكبر."[22] فرغم الحي البائس بؤس أهله الذي نشأ فيه والد السمراء جعل منه طبيبا يسهر على راحة أفراد حيه و كأن هذا الأخير أسرته، يجلس غليهم، يحاورهم، يسمع لانشغالاتهم لدرجة انه قسم وقته بيت الجامعة و فقراء الحي.

كما وردت لفظة الأزقة و الزنقات يقول:" واصلنا نمخر الأزقة"[23] فالأزقة هي رمز المعاناة و الفقر و الضيق و القدم بالإضافة إلى كثافة السكان ورغم هذه الصفات التي وصفها السارد للأزقة إلا أنه ذكر صفة الحب والتعاون التي تجمع أفراد هذا الحي الواحد و إلى حنين السمراء إليه فهو بيت الطفولة و سوف تحن غليه مهما غيرت من البيوت.

د– الحديقة:

تعتبر الحديقة من بين الأماكن العامة المفتوحة يقصدها الناس على اختلاف فئاتهم بحثا عن قسط من الراحة و للتمتع بما تحويه الحدائق من مناظر خلابة زهورا كانت أو أشجار متنوعة تبعث في النفس الراحة و البهجة و الأريحية، بعيدا عن الصخب و الفوضى فهي مكان يستكين إليه الناس، فالإنسان بطبعه يميل إلى الخضرة و يهدأ باله لها حيث يقول غاستون باشلار:" للطبيعة أسلوب بسيط في إثارة دهشتنا."[24]

فبمجرد دخولك الحديقة تثار حواسك على اختلافها و تتغير نفسيتك ايجابيا و تنسى شغف الحياة وهمومها يقول السارد:" سنوات عشر مرت ظللت أتردد فيها على هذا المكان .....في الحديقة."[25]

فالسارد هنا هرب على الحديقة بعيدا عن فوضى النادي الذي اكتظ بعشرات الطلبة و النظر على مرتاديه.

كما تعتبر الحديقة مكان ألفة، فيه يتعارف الناس و فيه تلتقي مع كل الطبقات كبارا كانوا أو صغارا، ذكورا أو إناثا. فالسارد يؤكد مقولة غاستون باشلار يقول:" جلسنا وسط حديقة الصور وقد حللتنا الدهشة، و لم تكبت مشاعرها."[26] فالسارد ينتقل بنا من مكان مغلق و هو البيت الذي يشعر بداخله بتلك الكوابيس إلى مكان مفتوح أكثر جمالا و هو حديقة البيت التي جعل منها مكانا لتطوير موهبته و مصدر إلهام له يقول السارد:" وحديقة تحيط بالبيت من جهتيه، اتخذت من جزء منها مرسما و مستقبلا لضيوفي الذين قلما يقتحمون علي خلوتي."[27]

فهو ينتقل من ضيق البيت إلى مكان مفتوح يعيش فيه عالمه الخاص يتنفس فيه هواءا نقيا بدل أن يتنفس هواء البيت الذي يشعره بأنه سفاح قد سكت عن جريمة كان شاهدا فيها و لم يبلغ عنها. كما عبرت الحديقة في رواية حائط المبكى عن الحب و الأمل لما فيها من زهور ساحرة و روائح زكية تأخذك على العالم الآخر يقول السارد:" خرجنا بعدها على الحديقة التي كنت أعتقد أن لمساتي الفنية، قد جعلتها ساحرة .....تسند رأسها إلى الخلف، كأنما تحلق تطارد الألحان"[28]

فمنظر هذه الحديقة و مدى ترتيبها قد سحر عقل السمراء وجعلها تحلق بعيدا خاصة و أنها برفقة الرسام الذي أعجبت به و بمواهبه الفنية خاصة عندما يجسدها في لوحة فنية خلابة.

3- خـاتـمــة:

يعدّ عز الدين جلاوجي روائيا مبدعا حيث يغوص بالقارئ في رواياته في لأعمق أعماق النفس البشرية ويحلق به في أفضية الفن الواسعة بتلك اللغة الشفافة الراقية، و من خلال دراسة الرواية يتضح لنا اهتمام الروائي عز الدين جلاوجي بالمكان كونه أحد العناصر الفنية في الرواية، فقد ركّز على توظيف المكان توظيفا جماليا و لذا يمكن تلخيص أهم النتائج المتعلقة بجماليات الأمكنة المفتوحة في رواية" حائط المبكى" وفقا لما يلي:

- القدرة على تصوير المكان و توظيفه بكل أبعاده النفسية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية.
- اكتساب الأماكن في رواية حائط المبكى بعدا فنيا من خلال تسخيرها لممارسة إبداعه و عيش عالمه الخاص.
- الملاحظ من الرواية ميل الشخصيات و ارتباطها بالأماكن المفتوحة أكثر منها المغلقة بسبب الحالة النفسية التي تعيشها الشخصيات في الرواية مثل انتقال من البيت إلى حديقته أو الانتقال من البيت إلى الشارع.

4- قائمة المصادر والمراجـع:

1) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
2) عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1994.

3) عز الدين جلاوجي، حائط المبكى،، دار المنتهى، الجزائر، ط3، 2017.
4) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب همسا، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط6، 2006.
5) قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق، دط، 2001.
6) مجموعة من المفكرين الفرنسيين، الإنسان و المدينة في العالم المعاصر، ترجمة كمال خوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق،دط،1977.
7) محبوبة محمدي محمد آبادي، جمالية المكان في قصص سعيد حورانية ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2011.

5- الهـــوامـــش:

1- عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسة في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1994. ص196.
2-حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1990.ص79.
3- قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق، دط، 2001،ص22.
4- مجموعة من المفكرين الفرنسيين، الإنسان و المدينة في العالم المعاصر، ترجمة كمال خوري، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق،دط،1977، ص5.
5- عز الدين جلاوجي، حائط المبكى،، دار المنتهى، الجزائر، ط3، 2017، ص23.
6- عز الدين جلاوجي، حائط المبكى، ص52.
7- المصدر نفسه، ص.59
8- المصدر نفسه، ص.60
9- عز الدين جلاوجي، حائط المبكى، ص.19
10- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب همسا، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط6، 2006،ص188.
11- المصدر نفسه، ص.20
12- المصدر نفسه، ص63
13- عز الدين جلاوجي، جائط المبكى، ص.62
14- المصدر نفسه، ص.86
15- المصدر نفسه، ص86.
16- محبوبة محمدي محمد آبادي، جمالية المكان في قصص سعيد حورانية ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، 2011، ص.51
17- عز الدين جلاوجي، حائط المبكى، ص.16
18- المصدر نفسه، ص29

19- محبوبة محمدي محمد آبادي، جمالية المكان في قصص سعيد حورانية، ص.52

20- عز الدين جلاوجي، حائط المبكى، ص.43

21- المصدر نفسه، ص.99

22- عز الدين جلاوجي،، حائط المبكى، ص66

23- المصدر نفسه، ص.99

24- غاستون باشلار، جماليات المكان، ص.123

25- عز الدين جلاوجي، حائط المبكى، ص.8

26- المصدر نفسه، ص.26

27- المصدر نفسه، ص25.

28- عز الدين جلاوجي، حائط المبكى، ص27.